

الجاحظ معلم العقل والأدب

للأستاذ

عبد المجدد الغزالي

معيد الرياض العلمي

أولا والأدب ثانيا ذلك أن كتبه دائرة واسعة للمعارف ومدرسة رحبة بمادتها وأسلوبها وهي علم وأدب ممتازين أحسن امتزاج وان نظرة فاحصة لتلك الكتب وتتبع مصادرها وجد فيها أبا عبيدة والأصمعي وأبا زيد الأنصاري والاختفش مع علومهم اللغوية واللسانية والنظام شيخ المعتزلة مع كلامه وفقهه والفلسفة والطب والحيوان والثقافة الفارسية والهندية ، ووجد العرب وتقاليدهم الأدبية ومذاهبهم في الكتابة نثرا وشعرا ووجد الجاحظ مع تأملاته واختبارات العلم والاجتماعية مع مشاهدته ومسموعاته مع روحه الاعتزالية وطريقته الجاحظية وان ما بقي من تلك الكتب ومن عناوين المفقود منها يشير اشارة واضحة الى موسوعة عجيبة يهيمن على مجملها كما تهيمن على كل واحد منها ولهذا كانت محاولتنا في ذلك لاتتمدى وجه التقريب وصعوبة التبويب والترتيب لانمنع أن تلك الكتب تعلم العقل بمادتها الفريدة وروح صاحبها العلمية الجامعة فهي أدب وشعر وبلاغة في « البيان والتبيين » و (عناصر الآداب) وهي نقد وأخلاق واجتماع في كتاب (البخلاء) و (وتهذيب الاخلاق) ، و (أخلاق الشطار) وهي فلسفة في كتاب (فضيلة المعتزلة) و خلق

عصفت في عصر الجاحظ تيارات العلم والمعرفة وتشعبت فروعاً ومذاهب بعد أن نقلت الى العربية ثقافة اليونان والفرس والهند وبعد أن ضجت الآفاق بمنطق أرسطو وفلسفة أفلاطون وطلب جالينوس وهندسة اقليدس ورياضيات بن حمديس واختلفت المذاهب اختلافا شديدا والمدارس الادبية بين قديم وحديث وسارت الآراء في كل متددى وتحت كل فضاء والناس قد اختلفوا في اتجاهاتهم العلمية والادبية وكان ابن المقفع وأتباعه قد نقلوا الكتابة من حقل الفناء والخطابة الى حقل البحث والتنقيب ومجال الفكر التفصيلي وقد كان في ذلك العصر رجل اتسع صدره بكل علم وأدب ولكل ثقافة وفن وتقلب مع الايام وفي ظل الخلافات وخبر من الشعب مختلف الطبقات ولمس شتى النزعات والعقليات وجمع في نفسه ما للعرب والعجم وشهد اختلاف العرب والشعوبية ونزعات المذاهب والمصيبة دائنا بدين العقل الاعتزالي مناظلا في سبيل العقيدة الخاصة متصرفا في طرائق العيش تعرف الجد والهزل وقد أراد أن يكون رجل الساعة وموسوعة العصر فذهب في الكتابة كل مذهب ناظرا علم العصور في أدب فياض وأسلوب جمع كتب جليلة في سلك مآثر الغالدين ولا عجب أن يصبح الجاحظ معلما للعقل

حوى الكتاب طائفة صالحة من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية كما يحدث في سياسة الاقوام والافراد كما تكلم في نزاع اهل الكلام وسائر الطوائف الدينية تحدث الكتاب في كثير من المسائل الجغرافية وفي خصائص كثير من البلدان وفي تأثير البيئة في الانسان والحيوان والاجناس البشرية وعادات العرب) -

(القرآن) و الرد على المشبهة (و الاستطاعة) (خلق الافعال) وكتاب (الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير) وهي سياسة واقتصاد في (الخراج) ، و (الاستبداد والمشورة في الحرب) والزروع والنخيل والزيتون والاعناب وطب (الكيمياء والمعادن)

وتاريخ وجغرافيا في الكتب الآتية :

وقال أحمد أمين في كتاب الحيوان (انه معرض لكل الثقافات عربية ويونانية وفارسية وهندية ومعرض للثقافات الدينية من مانوية وزردشتية ودهرية ويهودية ونصرانية واسلامية وهو تكلم في أساطير الفرس ويعتمد كلاما طويلا يذكر فيه ميزاتهم ويحكي عن المانوية والزنادقة وكتبهم وعبادتهم ويحكي عن اليهود والنصارى) .

وقد قال الجاحظ في مقدمة كتابه :

(هذا كتاب تستوى فيه رغبة الامم وان كان عربيا اسلاميا فقد اخذ من أطراف الفلسفة وجمع معرفة السماع بالعلم والتجربة فهو يعتمد الحواس والعقل في ادراك الامور والعنصر الاول من عناصر تحقيقه هو المعانيه يضم اليها التجربة والفرس والمقابلة والتصنيف)

وكان يشرح الحيوانات ويجمع بعضها في اناء واحد وقد رد الجاحظ على أرسطو في كثير من الامور (ويقول الجاحظ) ان أرسطو لم يعتمد في تحقيقه على العيان والسماع حيث يقول :

(الاخبار وكيف تصح) (الملوك والامم السالفة والباقية) (القحطانية والمدنانية) (نخر السودان على البيضان) و (كتاب الحيوان) من أشهر كتب الجاحظ وقد أوحى به كتاب لأرسطو بنفس العنوان كما أوحى مجموعات لغوية حيوانية في الابل والنخيل والوحوش والحمام وغيرها لشيوخ اللغة وأساتذة العصر من أمثال الاصمعي وأبي عبيدة وساعدت على وصفه كتب جالينوس في الطب واقليميون في الفراسة والشعر العربي الذي سجل فيه الشعراء أخبار الحيوان الوحشي والاليف وأطالوا في كلامهم على الابل والنخيل والاسدحتي قال الجاحظ :

(وقل معنى سمعناه في باب المعرفة للحيوان من الفلاسفة وقرآناه في كتب الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدناه أو قريبا منه في أشعار العرب) و (كتاب الحيوان) يقع في سبعة أجزاء فصل مضمونها عبد السلام هارون بقوله (قد يوهم اسم أنه قد خصص بالحيوان وما يمت اليه بسبب ولكن الحق أن الكتاب صورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي المتعددة الاطراف فقد

(للامور حكام) :

١ - حكم ظاهر للعواس •

٢ - حكم باطن للعقول ، والمقل وهو (ديكارت) في هذا المضمار وهكذا سبق الجاحظ الى نظرات في منهج البحث فيما يسمى الآن (سيكولوجية الحيوان) ،

وننتقل من الجاحظ المعالم الى الجاحظ الاديب فقد قيل أن كتب الجاحظ رياض زاهرة ورسائل ثمرة (وقال ابن العميد : ان الناس عالة عليه في البلاغة والفصاحة)

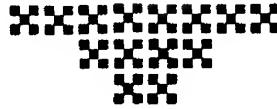
وقص الرواة أنه قيل لأبي هفان : لم لاتهجو الجاحظ وقد هجاك فقال : أمثلي يخدع عن عقله والله لو وضع رسالة في أرنية أنفي لما أمسيت الا بالصين شهرة ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة ، وكان الجاحظ يعني بالفاظه ومعانيه جميعا ، وقد قال شوقي :

(ان الجاحظ خطأ بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات في خلاصة وبيان عذب وكأني به لم يفهم أن الكتابة

الادبية الفاظ ترصف وانما كان يفهمها على أنها معان تنسق في موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة والانسان) ويقول الجاحظ في مقدمة كتاب (البيان والتبيين) : قد عزمت والله الموفق أن أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادير من ضروب الشعر وضروب الاحاديث لنخرج قارئ هذا الكتاب من باب الى باب ومن شكل الى شكل وقد ذهب الجاحظ في كتابته مذهب الدقة والوضوح والواقعية والميل الى الفكاهة مما يخفف جفاف البحث العلمي وهو يراعي مقتضى الحال في كتابته ويتحدث بأسلوب طبيعي هو أسلوب الحياة فهو يعبر عن الحقيقة تعبيرا واضحا بعيدا عن المجاز الا قليلا •

وأخيرا لاشك أن الجاحظ بما جمع من معارف وثقافات وجدل ومناقشات ومعلم للادب بما روى من أخبار الادباء وآثارهم وبأرائه في الكتابة والبلاغة ثم بأسلوبه الرائع الذي ضمن له الغلود والبقاء فيما اندثرت آراء غيره من أرباب العلم الذين كاد الدهر يمحو حتى أسماءهم من لوح الوجود •

عبد الله بن عبد العزيز الجبرين
معهد الرياض العلمي



العقل

قال سعيد بن جبير ما رأيت للانسان لباسا أشرف من العقل ان انكسر صححه وان وقع أقامه ، وان ذل أعزه وان سقط في هوة جذبه منها واستنقذه ، وان افتقر أغناه وأول شيء يحتاج اليه البليغ العلم المتزج بالعقل •